



رسالة الى لامي

قصة بقلم الدكتور سرييل اريسين

البطيئة الجافة على السلم الحشبي ، لم اشعر بأية رهبة ، يا امي ، بل احسست بودة دافيه لجاري البولوني . ولولا اني كنت متعباً تلك الليلة ، من فرط القراءة والكتابة ، لفتحت بابي وسعيت الى لقاء جاري للتعرف عليه ، ودعوته الى تناول فنجان من القهوة في غرفتي .

وتعرفت على جاري في اليوم الثالث ، ولكنني تعرفت عليه وانا اكاد ابسكي يا امي . فقد فتحت بابي حين سمعت طرقات عكازيه البطيئة الجافة على السلم الحشبي ، ووقفت على العتبة متردداً ، التمس سبيلاً لمبادرته بالحديث . ولكنه ما كاد يراني ، حتى توقف فجأة عن الصعود ، او توقف عكازه ، كأنما باغتته رؤيتي . وسرعان ما رأيته يهوي الى خلف ، وتخطى يده الحاجز ، فيتدحرج على السلم بضع عشرة درجة ، ويتصادم عكازه في اثناء تدحرجه فيحدثان ضجة ودويًا ، قبل ان يستقرا الى جانبه ، عند نهاية الدرج .

وظلت على عتبة بابي لحظات لا اتحرك ، كأنما تعطل مني الشعور ، فغدوت صنًا لا حس فيه . ثم احسست فجأة بغضة في حلقي وطنين في رأسي . واندفعت بي قدماي . وفيما انا اهبط السلم ، شعرت بألم شديد في ساقتي ، عقبه خدر ، خدر لذيذ جداً ، كأنه لم يكن لي ساقان ، كأن ساقتي ، انا ايضاً ، مقطوعتان يا امي .

لم احس بأنني لمست السلم بقدمي ، فقد رأيتني فجأة الى جانبه ، كأنما قد قفزت الدرجات كلها قفزة واحدة . ومددت ذراعي اليه ، هو جاري البولوني ، اود ان ارفع رأسه وكتفيه عن الارض . وفي انحاءتي فوقه ، اقترب وجهي من وجهه ، فشعرت بأنفاسه تلمح خدي . وكانت انفاساً راعشة حارة . وكان حتى تلك اللحظة مغمض الجفنين ، متقلص القسما ، ناطقاً وجهه بالالم . ولا ريب في انه قد شعر بأنفاسي تلمح خديه ، ففتح عينيه . ولم

امي الحبيبة .

رأيتك في الحلم ليلة امس . واذ نهضت هذا الصباح ، شعرت بنغمٍ يملأ صدري من ذلك الحلم . لا ، لن اروي لك تفاصيل الكابوس ، وكل ما ارغب به اليك ، بعد ان تفرغي من قراءة هذه الرسالة ، ان تسارعي إلى كتابة رسالة تقولين فيها إن صحتك جيدة ، وانك لا تشكين شيئاً .

منذ اسبوع فقط انتقلت الى هذا الفندق ، ونزلت في غرفة صغيرة من الطابق السادس فيه . تسأليني إن كان للفندق مصعد؟ لا يا امي . ولكن لا تخزني لي . ام تحسبن اني اصبحت شيخاً يرهقه ركوب قدميه ؟ أعلي انا تشفقين ؟ اذن ، فما عساه يكون موقفك من « بول » ؟

آه ، من هو بول؟ إنه جاري البولوني الذي يرقى سنًا وثمانين درجة من السلم بساق واحدة . إن ساقه اليمنى مقطوعة يا امي ، وكذلك ذراعه اليمنى . ومع ذلك فلا حاجة به الى المصعد . إن له ساقاً اخرى ، وذراعاً اخرى ، وإن تحت ابطيه عكازين . ولقد اخافني ، يا امي ، صوت هذين العكازين ، حين افقت عليه للمرة الاولى تلك الليلة . لقد فتحت عيني ، وانا اسمع تلك الطرقات البطيئة الجافة على السلم الحشبي ، فشعرت بحقق قلبي ، وبضيق في صدري ، وامسكت انفاسي حين اقترب صوت الطرقات من باب غرفتي ، ثم انقطع ، فتفانم خوفي ، وظلت اترقب ان يفتح الباب ، ويدخل عليّ لص او عريبيد ، او ايّ رجل يريد بي شرًا . ولكنني ما لبثت ان سمعت صرير القفل في باب الغرفة المجاورة ، فهبط صدري ، وترايل خوفي رويداً رويداً . وفي اليوم التالي ، علمت من مدير الفندق ان جاري البولوني قد فقد ساقه وذراعه في الحرب الاخيرة ، وانه يعمل منذ سنوات في مصنع للأحذية ، ضارباً على الآلة الكاتبة .

وحين سمعت مساء ذلك اليوم بالذات ، طرقات العكازين



ادر ماذا رأيت فيها حتى اشعر بالدمع يتفرق في عيني . وحين
بكيت ، يا امي ، شعرت بأن هذا الذي بين ذراعي هو اخي .
- عفوك ياسيدي ...

لست ادري منذ الذي قالها ، هو أم انا ، ولكني اعرف اني
كنت اود ان انطق بها ، إن لم انطق بها فعلاً . فقد كنت
مقتنعاً اشد الاقتناع بأني كنت المسؤول عن سقطته . كان يرقى
السلم كمادته على ثقة واطمئنان ، فبرزت في وجهه وقطعت
حبل اطمئنانه ، فافقدته توازنه . عفوك ياسيدي . انني شديد
الاسف لسقطتك ، واني ارجو ان يكون ما اصبته من ألم يسيراً
هيناً . أتشكو شيئاً في رأسك ، أم في ظهرك ، أم في يديك .
لا ، عفوك ياسيدي . خذ ، هذان هما عكازك . بل اعتمد على
كتفي . هات ذراعك . هات ذراعك يا اخي ..
واجلسه على كرسي في غرفتي . وكان يلهث ، وكنت مثله
الهث . ووضعت يدي على كتفه برفق اسأله ان كان قد خف
المه ، فابتسم ابتسامة حزينة وقال :

- لا عليك ياسيدي .

وتلبث لحظة قبل ان يردف ، وهو يسبل جفنيه :

- لقد تعبت اليوم كثيراً في المكتب ، وحين رأيتك على
العتبة ، كانت قوتي كلها قد نفذت ، فوقف لأستريح ، ونسيت
ان اعتمد الحاجز .

ثم رفع إليّ بصره ، وعادت الى شفتيه بسمته الحزينة
وهو يضيف :

- اعذرني ايها الصديق على ما كلفتك من مشقة .

ومرت لحظات لا يقول احدنا فيها شيئاً . ثم رأيت يتامل
في مجلسه ، كأننا ادرك انه ازاء رجل غريب لم يعرفه إلا منذ
هنية ، فتحرّك بهم بالنهوض قائلاً :

- اسمح لي الآن ان اتركك . فلا بد ان عندك ما يشغلك .
ولكنني سارعت فأنكرت ان يكون بين يدي ما هو جدير
بأن يشغلني عنه آنذاك ، ورجوته ان يبقى في غرفتي هنيهة
اخرى ، ثم نهضت فأعددت له فنجاناً من الشاي . ولقد نظرت
الى عينيه مرة ثانية ، عبر البخار الذي كان يتصاعد خفيفاً من
الشاي ، فقرأت فيها املاً غامضاً بود ان يصارع شبح الفاجعة .
ثم غادرني بول الى غرفته بعد ان تحدثنا ردهماً من الزمن .
وظلت استمع عبر الجدار الذي يفصل غرفتي عن غرفته الى حركاته
وصوت عكازيه وصرير سريره .

وبقيت اتساءل تلك الليلة : لماذا لا يبحث بول لنفسه عن
غرفة منخفضة في احد الفنادق المتواضعة فيوفر على نفسه هذه
المشقة الكبيرة في ارتقاء ست وثمانين درجة ؟ أترأه افقر من ان
يدفع مبلغاً اكبر من هذا الذي يدفعه اجرة لغرفته الصغيرة هذه؟
وطرق عليّ جاري الباب مساء اليوم التالي ، وسألني بركة
ولطف عما اذا كان لا يزعجني ان يجالسي ربيع ساعة ، فقد أنس
بي وشعر لي بثقة واطمئنان ، فرحبت به وشكرت له انه اقبل
يتيح لي هدنة قصيرة مع القلم والكتاب ، كنت إذ ذاك بأشد
الحاجة اليها ، وإن كنت لا احسّ هذه الحاجة .

وقد حدثني بول ذلك المساء عن كثير من شؤون حياته
الجارية ، فأدركت انه يسوق حياة الكفاف ، وان عاهته تعجز
غالباً عن ان توفر له ما يقم اوده ، في عالم لا يثبت في معركته
إلا المصارع السليم ، بله القوي . وقد فهمت منه انه كان يدفع
اجرة غرفته نصف ما كنت ادفعه اجرة لغرفتي ، وهو مع هذا
ينوء بذلك المبلغ ، وانه يبحث عن غرفة اقل كلفة ، ولو كانت
اكثر ارتفاعاً .

ولقد وددت يا امي ، لو كان في مكنتي ان اعين بول على
امره او اشاركه غرفتي . ولو ان ذلك كان في طاقتي حقا
لرفضه صاحب الفندق الشرس .

وكان بول يحدثني عن عمله الضئيل في المصنع ، حين وقع

بصره على صورتك يا امي ، موضوعاً في إطارها الحشبي على طاولة صغيرة مجذاه سريري ، فاذا هو ينقطع عن الحديث هنيهة ، ثم يسألني :

— أليست هي امك ؟

فأومأت برأسي إيجاباً ، فعاد ينظر الى صورتك بكآبة ، ثم اسبل جفنيه مرة أخرى وقال :

— إن امك تنتظر عودتك اليها دون ريب ، وأنت عائد عمّا قريب . ولكن امك حين تلقاك وتضمك الى صدرها ، فستلقى انساناً كاملاً ، وستنضم بشراً سوياً ...

ونظر إليّ بول ، وعلى شفقيه بسمة مرة ، ثم اردف :

— وقد تبكي امك حين تراك ، ولكنها ستبكي فرحة بلقائك واعتزازاً بك ... لا اسفاقاً عليك ورتاءً لك ...

ورأيت يده ، يده اليسرى السليمة ، ترتفع مرتعشة الى وجهه ، فتغطي عينيه في حركات عصبية ، ثم تتهلّس اصابعه جبينه وخذيه بتشنج ، كأنما كان يصارع فيضاً من الدموع في مآقيه ، وردد فجأة بنبرة مجروحة معذبة :

— اجل .. لا إسفاقاً عليك ورتاءً لك .. لا إسفاقاً عليك .. وأصاب لساني البكم ، وجمدت على شفقي الكلمات ، وشعرت بضيق شديد يأخذ بصدري . وماذا كان بوسعي ان أقول ، لو قدرت على الكلام ؟ لقد كان قصارى ما عملته ، ان أدنيت كرسبي من بول ، وألقيت ذراعي على كتفيه ، وجعلت أربت عليها ملاطفاً ومهدئاً .

وحين سكن جاري البولوني ، وذهبت سورة اعصابه ، لم يتكلم طويلاً :

— رسالتان فقط ، تلقيت منها طوال بقائي في الجبهة ، طوال تسعة عشر شهراً . كانت الرسالة الأولى تحمل إليّ نبأ مرضها بعد مغادرتي المنزل الذي لم يكن يضمّ سواها وسواي منذ تسعة اعوام ، منذ مات أبي . وقد قالت لي في تلك الرسالة إنها تشعر بانها ، وهي وحيدة في البيت ، ليست إلا مخلوقاً تافهاً ، وانها تخجل من حياتها البليدة إذ تفكر بانني في الجبهة أعانق الموت عشرين مرة كل يوم . وكان ختام تلك الرسالة القصيرة قولها بانها لا تعيش إلا لتلقى رسائلي وتعانق فيها روحي ، وانها تبتهل إليّ بان أكتب لها دائماً ، ولو قصّرت هي في الاجابة ، إذ كانت تعاني ألماً شديداً في الكتابة إليّ .

وأخى إليّ بول بصره ، وقد ذاب فيه أسيّ رهيف :

— الرسالة الثانية ؟ لقد تلقيتها تسعة أشهر بعد الرسالة الاولى . وكانت فيها عبارة واحدة ، عبارة يتيمة : « بدأت يا ولدي أقاوم الموت ، وسأظل أقاومه حتى ترجع . واقسم لك انني سأستسلم له بعد ان اضمك مرة واحدة بين ذراعيّ . »

وأضاف بول بلهجة هازئة :

— كان اليأس قبل ان تبلغني هذه الرسالة يوشك ان يتغلب عليّ في الميدان . كنت أعرض نفسي لكل خطر وأدعو الموت إليّ كل لحظة ، وانا أزداد يقيناً بان الحياة أتفه من ان تستحق ان يعيش فيها إنسان ينقلب وحشاً في ساحة القتال ، لا همّ له إلا تمزيق لحم اخيه . ولذلك كانت فكرة الموت هينة على نفسي ، حتى تلقيت رسالة أمي هذه ، فأصبحت أخشى الموت . اصبحت اخشاه لأنني ايقنت ان الحياة جديرة بان تعاش من اجل امّ يعذبها ان تشعر بتفاهة وجودها إذ تذكر ان ابنها يجابه الموت . لقد حننت ان أضمّ امي مرة واحدة الى صدري ، قبل ان اموت . وحين بدأت اخاف الموت ، اقترب مني الموت . في اليوم التالي ، انفجرت القنبلة بيننا ، فقتل سبعة عشر من رفاقي ، وجرح كثيرون . وبتوت شظية كبيرة ساقى اليمنى ؛ وفي المستشفى ، كان لا بدّ من بتو ذراعي اليمنى بعد اذ اصابتها شظية اخرى فالتهب جروحها .

وظلّ بول اثني عشر يوماً يصارع الموت في المستشفى ، حتى قطع الأطباء كل أمل بافلاته من الهلاك ، لشدة ما نزف من دمه ، وفرط ما نفذ من قواه . ولكنه كان يريد ان يعيش ليروي امه التي كانت تحيا على أمل لقائه . وحين زال عنه الخطر ، قرر الاطباء الاّ يسمح له بمغادرة المستشفى قبل مرور اربعة أشهر على الاقل . غير انهم سمحوا له ، بعد الحاح شديد ، بان يقابل أمه فدعاها اليه .

— وحين دخلت عليّ غرفتي ، كان وجهها ممتلئاً بالنور . كانت كأنما استعادت صباها . كانت الحياة شعلة في عينيها . وحين ضمتني امي الى صدرها ، شعرت ان في جهشة بكائهما السعادة كلها . ولكن بدا انها لم تحس في ضمتي إياها الدفء الذي كانت تنتظره ... فتراجعت بخطوة ، واذ ذاك ادركت كل شيء . وسرعان ما انخرطت في البكاء ، وكان في جهشتها هذه المرة الشقاء والاسفاق والرتاء . بل لقد خيل إليّ اني اقرأ في عينيها الخوف ، كأنها خافت ان تضم اليها جسداً مشوهاً مبتوراً ، انساناً شوّهت الحرب معنى حياته إذ شوّهت جسمه .

مِنْ ذِكْرِي فِي الْمَدْرَسَةِ

بقلم مارون عجبور

الشدياق مارون . فلم أبداً ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني .

ودخلت المدرسة مع من دخلوا، فكانت الفاتحة ان اكلت قضيبين سخنين على سفح ظهري، فأرخت لرجلي العنان فاستقبلني والدي العملاق بأحد قضبانه .

كان، غفر له الله، يعمل بنصيحة ابن سيراخ القائل: اذا احببت ولدك فبهيء له القضبان حزماً حزماً . ثم قادني باذني كالعنزة الشاردة، وهناك على اعين التلاميذ قال الكلمة المأثورة للمعلم: اللحم لك والجلد والعظم لي، ثم التفت بي وقال: فهمت يا كلب. ومنذ ذلك الحين صرت اطوع من الخاتم في الخنصر، وانعم من الحمل .

وبوم احد الوردية الكبيرة خرجنا من الزياح، فاذا بزمارين معهم دب يغنون له ويرقص على وقع الدف والقصب، فعجبت من طواعية الدب واستوائه كالبشر، يعرض العصا بين كتفيه كالناطور، ويمشي مشية الصبايا والعجائز، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه، حتى انه يدخن بالغليون .

قلت لوالدي: الدب كيف تعلم كل هذا؟! فضحك وقال لي المثل المعروف: العصا تعلم الدب الرقص. فهفمت تعريضه بي وقلت في نفسي: اذا كانت كقضبانك تعلم اكثر من دب .

هذي واحدة من ذكريات مدرستي الاولى، هدرسة تحت السنديانة، حيث كنا نطف خطأً طويلاً حد حيط الكنيسة، الاعلى فالاعلى علماً . وفي تلك المدارس كانت تسوسنا العصا استاذة الدب، اما عقاب الجرائم الكبرى فكان (الفلق) ابنتك تذوق طعمه . الفلق خشبة تكمش الساقين كمشاً كالعض، لتعرض القدمين الى قضيب المعلم فينصب بلا شفقة . انني لم اذق هذا العلاج، والفضل لحزمة قضبان الوالد التي اذا مات منها سيد قام سيد .

ليس من حق الطالب ان نعرض عليه شريط ذكريات مدرسية قديمة وحديثة؟ اليس هو اليوم منصباً على دروسه حاملاً بشهادته، عروس آماله التي يرى السعادة كلها في تراويقها وحرورها؟

يقول الناس عموماً وذوو التلاميذ خصوصاً: اين مدارس هذا العصر من مدارس ذلك الزمان! واين تلاميذنا من اولئك التلاميذ!

انهم طبعاً يضعون الحق على المدارس: ويبرئون انفسهم حين يقولون هذا. ولهذا انا اروي ما مر على رأسي من شؤون المدارس وشجونها، فيقابل الفاريء بين مرني ذلك الزمان، ومرني اليوم. دق قلبي دقات عنيفة عندما قال ابي لأمي: دبرنا له المدرسة. والتفت الي وقال وهو يجرح كلمته: غداً تصير

وصمت بول ليستعيد انفاسه المنقطعة، ثم انتهى الى القول: ولم يسمحو لها ان تبقى الى جانبي طويلاً. وبعد اربعة ايام بلغني نعيها .

★

امي الحبيبة

لم انم تلك الليلة إلا قبيل الفجر . كانت صورتك تملأ عيني، ونجّيل إليّ احياناً انها كانت تفقد بعض ملامحها لتحل محلها ملامح اخرى فيها مشابه من وجه جاري البولوني، جاري بول الذي اجهد الآن كثيراً لاستعادة قسما وجهه . فقد نسيت ذلك الوجه او كدت، منذ ان غادر الفندق، بجشاً عن غرفة اصغر وأقل أجراً، كما قال لي صاحب الفندق .

وانا منذ ثلاثة ايام انتظر، يا امي، كل مساء طرقات ذنبك العكازين البطيئة الجافة على السلم الخشبي، فأشعر بنجبة وكآبة إذ يمضي الليل فلا اسمع تلك الطرقات . كم اودّ، يا امي، ان اعرف موقع الغرفة الحظيرة التي نزلها أخي بول .

سهيل ادريس